

شعر العلماء

الأستاذ محمد أحمد براني

العلماء يحصلون عليهم من الواقع الملوس أولا ، حتى إذا اتسع الأفق أمامهم
خرجوا عن دائرة المحسوس ، وساروا مع العقل حيث يسير ، فهم مقيدون بأسباب
ومسيات ، ومقدمات ونتائج ، وتفكير عميق يخرجون منه إلى مسائل يقررونها
أو قواعد يقيسون عليها ، أو غير ذلك

والشعراء لهم ملكة ذهنية خاصة ، قوامها الخيال الذي يطير في جو من العاطفة
والوجدان ، على أجنحة من التشبيه البليغ وأنواع من الاستعارة ، وألوان من البديع .

ومثمة العلم غير مثمة الشعر ، فالحقيقة المجردة ثمرة العلم ، وغذاء الروح .
وإخصاب العاطفة ثمرة الشعر . فغاية العلم تختلف عن غاية الشاعر ، ولكل منهما
طريق غير طريق الآخر ، فالعالم يصل إلى غايته بنفسه ، والشاعر يتوقف وصوله
إلى غايته على غيره من يقرأ شعره ، ويتأثر به ، وأيا كان الأمر ، فإن لكل منهما في
تهمة الجمهور ، وطبعه بطابع خاص - أثره وخطره .

وبعد ، فهل يمكن أن تجتمع الملكتان : ملكة العلم ، وملكة الشعر - لرجل
واحد ، فيكون عالما معدودا بين العلماء ، وشاعرا معروفا بين الشعراء ، أي أنه
يسطيع أن يغذى العقل والروح معا ؟

لا يمكننا أن نجيب عن هذا السؤال من غير تفكير طويل ، وبحث وأناة
وروية ، لأن الاستقراء ، وتتبع الحوادث ، والنظر إلى الواقع ، كل أولئك يثبت
لنا أن من بين العلماء من عالج الشعر ، وكان له بصير بفنونه ، إلا أن كثيرا منهم
لم ينجح ، وشعر العلماء في جملة ، إذا نظرت إليه ، وجعلته مقياسا تقيس عليه -
اختلف أمامك قوة وضعفا ، فيكون تارة أدبل في خيال الشعر ، وطورا أقرب إلى

حقائق العلم

ولأن الشعر شيء محبوب إلى النفوس ، لأنها تستطرب به إن كانت أسية محزنة
ولأنه يسمعه الجبان فيحمس ، والبخيل فيجود والعاشق الولهان فيسلو ، والقلب
الصلد فيرق ، والجامد فيلين ، والمضنى فيمضى مصحوبا معافى ، والتائر فيسكن طيره -
لهذا كله يحبه الناس ولا سيما إذا كان جيدا عذبا ، يسير إلى القلب في طريق سهلة
مأهولة ، ولهذا أيضا يتعنى كل إنسان أن يكون شاعرا ، ويحاول كل من تهيات له
بعض أسبابه أن يتعلق بأذيال الشعراء ، ويجهد في أن يتسهل له أمره ، وتغنوله
قوافيه ، عسى أن يتطرب نفسه ، وأن يتطرب الناس معه ، وتلك ظاهرة نللسها اليوم
في الشدة من أبنائنا الشبان ، وهى ظاهرة محمودة في ذاتها وسيذهب الزبد مع الأيام
جفاء ، ويبقى النافع المفيد

ولم يكن هذا الميل إلى صناعة القريض من لم تنهيا لهم كل أسبابه ، طابعية كانت
أو غير طابعية - حديث العهد ، أو أثرنا من آثار الحضارة ، فرغبة التزيد من كل
شيء ، والتطلع إلى معرفة كل ما يقع تحت الحس ، وإزجاء النفس إلى المشاركة في
كل ما تظن أنه يمكنها المشاركة فيه - هذا كله طابعية في الناس اقتضتها نوااميس
الحياة .

ولو رجعتك إلى الورا قرونا ، وأطلعتك على شيء من آراء المتقدمين ، وميلهم
إلى الشعر ، لو جدت أن للأطباء شعرا ، وأن للنحاة شعرا ، وأن للفقهائ شعرا ، وأن
للفلاسفة شعرا ، وأن لغيرهم من ذوى العلوم العقلية المختلفة شعرا كثيرا ما ثوراعنهم .
الا أن هؤلاء جميعا عند ما يحاولون أن يصنعوا القريض - لا بد لهم من أحد
أمرين . إما أن يملعوا في الوقت الذى يقولون فيه الشعر ، ثوب العلم ، ويلبسوا ثوبا
جديدا يبعدهم عن الحقائق العلمية الجافة ، وينغمروا أنفسهم في جو الخيال البديع ،
والوجدان الحى ، فيواتبهم الشعر ولو بعض المراتاة . وأما أن يغالوا على خالهم
فيأتوا بالتريب المضحك الذى لا يعرف الشعر ، ولا يعرفه الشعر ، ولا ينتمى إليه
بسبب غير الوزن ، فهما يقفان جنبا إلى جنب أمام على العروض والقوافى فقط
ويقترقان في غير هذا . ومثل هؤلاء ، شغفهم بالشعر يحلمهم يدسون على غير استحيا
هذه الالفاظ الموزونة بين شعر الشعراء ، ويسمونها شعرا ، ويتشدقون بها في

الأندية والمجالس ، ويفخرون على أمراء القريض ، ولا يمدحون وطبعا من يصفق لهم اذا أنشدوا — من لا يملكون من الأدب قليلا ولا قطميرا

* * *

واذا وضعنا الشعر في موضع خاص ، ووضعنا العلوم مرتبة بحسب قربها منه ، أو بعدها عنه — كان الطب والهندسة وعلوم الفلسفة وماشاكلها بعد العلوم منزلة عن الشعر ، وكان النحو والصرف وعلم القراءات وماشابهها في الدرجة الوسطى وكان علم الاخبار والأنساب ورواية اللغة والشعر أدنى العلوم من الشعر منزلة ، وأشدّها به صلة . فمعالجة الشعر بالنسبة الى هؤلاء أيسر من معالجته بالاضافة الى علماء النحو والتصريف ومن على شاكلتهم . ثم ان هؤلاء أقرب الى الشعر من علماء الطب والهندسة ونحوهما .

ومع ذلك فان الشغف الشخصي ، والاستعداد الطبيعي — لها اكبر نصيب في تكوين شاعرية العالم ، فان هذه الشاعرية قد تطفئ على الملكة العلمية طفيانا قليلا أو كثيرا بحسب درجة شغف الشاعر واستعداده ، فتؤثر فيها .

* * *

وان من بين أطبائنا ومهندسينا اليوم من لم يشغف باللغة والأدب ، جعلهم يتوفرون على خدمتها ، فأثروا بما يبقى ناعقا بفضلهم عليها ، وبسجله الادب بالشكر والثناء .

وليس ذلك بدعا منهم ، فان أطباءنا المتقدمين ، كان للكثير منهم باللغة عناية خاصة ، ولهم شعر كثير ، وهو وان كنت تقع على الكثير منه متكاملا ردينا ، فانه شاهد لهم على مبلغ عنايتهم بلغتهم : فالرئيس ابن سينا ، والامام فخر الدين الرازي وأمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، وأبو مروان بن زهر ، وهم من أطباء الاندلس — والرئيس موسى بن ميمون ، ورشيد الدين أبو حليفة ، وهما من سكننا مصر — وأبو نصر الفارابي ، وأبو الحسكم عبد الله بن المظفر ، وسيف الدين الأمدى ، وهم من الأطباء الذين قطنوا الشام — كانوا فوق مالهم من علو المعبة في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم كالفلسفة وعلوم الدين — يقولون الشعر . نعم ان بعض

ما صنعوه منه جيد — كقول الرئيس ابن سينا يصف الشيب وصفا مزوجاً بشيء
من الزهد والحكمة :

أما أصبحت عن ليل التصابي وقد أصبحت عن ليل الشباب
تنفس في عذارك صبح شيب وعمس ليله ، فلم التصابي
شبابك كان شيطاناً مريداً فرجم من مشيبك بالشهاب
إلى آخر ما قال ، وهو حين يتكلم عن الشيب ، ويسلك به هذا المسلك — ترى
على بن جبلة يقول :

جلال مشيب نزل	وأنس شباب رحل
طوى صاحب صاحباً	كذاك اختلاف الدول
أعاذ لتي أقصرى	كفأك المشيب العذل
بدا بدلا بالشيا	ب ليت الشباب البدل
جلال ولكنه	تحاماه حور المقل

وهذا هو الشعر ، فاعذب لفظه ، وأصفى قوله ، ويقول في ذلك أيضاً أبو
ذلف العجلي

نظرت إلى بعين من لم يعدل لما تمكن طرفها من مقتلي
لما تبسم بالمشيب مفارق صدت صدود مفارق متحمل
فجملت أطلب وصلها بتعطاف والشيب ينمزها بأن لاتفعلي
والامام فخر الدين الرازي له شعر كثير منه :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في غفلة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستغد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقولوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادروا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال
وهذا الشعر يتضمن حقائق صحيحة ، وإمكان أى شيء يملك إعجابك ، ويشير
عاطفتك ، ويفضى وجدانك ، وقد عدم منه الخيال ، وصبغ بصيغة الزهد والفلسفة ؟

ومن يديع قوله أمية بن أبي الصلت في البراغيث :

وليلة دائمة الغسوق	بعيدة المسمى من الشروق
كليلة التيم المشوق	أطال في ظلماتها تشريقى
أحب خلق لأذى مخلوق	يرى دمي أشهى من الرحيق
يغب فيه غير مستفيق	لا يترك الصبوح للغبوق
لو بت فوق قفة العيوق	ما عاقه ذلك عن طروق
كعاشق أسرى الى معشوق	أعلم من بقراط بالعروق
من أكحل منها وباسليق	يفصدها بمبضع دقيق
من خطمه المذرب الذليق	فصد الطبيب الحاذق الرقيق

فاذا كنت لاتعرف أن هذا الشعر ورد في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وإذا كنت لاتعرف أن قائله أمية ابن عبد العزيز بن أبي الصلت الطبيب الأندلسي ، ووقف أمامك صديق لك ينشده ، وسألك لمن هذا الشعر ؟ أجبت من فورك ، لا بد أن يكون قائله طبيبيا ، وإلا فن يذكر في شعره بقراط ، والعروق ، والفصد ، والمبضع ، وغير ذلك ، إلا الطبيب ؟ لأن هذه لغته التي تملها عليه مهته

اقرأ مثلا وصف أبي الرماح الأسدي للبراغيث ، وكان قد سكن مصر :

تطاول بالفسطاط ليلي ولم أكن بحنو الغضى ليلي على يطول
يورقى حذب صفار أذلة وان الذى يوقظنه لذليل
إذا ما قتلناهن أضعفن ككثرة علينا ، ولا ينمى لمن قتل
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة وليس لبرغوث إلى سليل ؟

فإنك تجد كلام شاعر لم يتعمق في الوصف ، ولم يذكر شيئا من الأسماء العلمية الدقيقة .

* * *

وإني أريد بهذه المناسبة أن أذكر أطباء اليوم أن طبيب الأمس كان في الكثير الغالب يضيف إلى علمه بمسائل الطب ، علما غيرا في أشياء أخرى ، ولا سيما علوم الدين والفلسفة والحكمة ، ولهم في هذه العلوم مؤلفات كثيرة فالإمام الرازي يتطبع

وله أكبر مؤلف في تفسير القرآن، والرئيس ابن سينا ألف في المنطق والفقه واللغة والفلسفة، فوق ماله من المؤلفات الطبية الباهرة، وكان لأبي جعفر بن البزوف المغربي اعتناء بعلم الحديث، ولسيف الدين الآمدي كتاب أ بكر الأفكار في الأصول، وكتاب غاية الأمل في علم الجدل، وكتاب منتهى السؤل في علم الأصول، ولرشيد الدين على بن حليفة، عم ابن أبي أصيبعة كتاب الموجز المفيد في علم الحساب وكتاب المساحة، وغير هؤلاء وأولئك ممن لا تقع تواليهم تحت حصر، ومع أن أسباب البراعة في الطب لم تكن متوفرة لديهم كما هي متوفرة اليوم، فقد كان لهم فيه شأن أى شأن. فعسى أن تكون لنا فيهم أسوة حسنة.

* * *

وأما النحاة فإن لهم شعرا أيضا، ومنهم قول ابن مالك ناظم الآلفية في النحو والصرف:

إلى ابن الخير عن ضرر خشينا فحسن الحزم رأيا أن دهمنا
وهذا مذهب وعمر مداه مواصل عزة قد حان صيتنا
إذا الملهوف ذا صدق عطاء تمل حسن الحماد ما حيتنا
هذا الشعر تجده في كتاب بغية الوعاة للسيوطى صفحة ٥٦، ولا اكذبك إذا قلت لك: إنى لم أفهم هذا الشعر، ويموز أن يكون فيه تصحيف استغلط معه المعنى وانهم على ألا تحمل الألفاظ فوق ما تحتمل من المعانى.
ومن شعر النحاة أيضا قول محمد بن السرى البغدادى فى أم ولده، وكان يحبها، وأنفق عليها ماله، وجفته بعد ذلك:

قايس بين جمالها وفعالها فاذا الملاحه بالحياة لا تفى
والله لا كلمتها ، ولو انبها كالشمس، أو كالبدر، أو كالمكتنى
وهذان البيتان لا تجد فيهما رائحة الجمال الشعرى، جمع أن الحال التى أوحى الى ابن السرى بالانشاد تخلق من غير الشاعر شاعرا، وأنشئ بيث الشاعرية أكثر من حب وضياع مال، ثم هجران وجفوة؟ اجتماع هذا يخلق نفسا ملتهبة، وشعورا متقدرا، إذا سال على أسلة قلم، حرك الصخر الأصم. وأغرب من هذا الشعر أن

يتفتى به متينا العظيم الشيخ يوسف المنلاوى ، وملئت به أسطوانة للحاكي .
والمكتنى الذى يضرب عالمنا به المثل فى شعره هو المكتنى الخليفة العباسى ، وكان
من أجمل الناس :

ولا بى البركات كمال الدين الأنبارى النحوى :
إذا ذكرتكَ كاد الشوق يقتلى وأرقتنى أحزان وأوجاع
وصار كلى للولبا فيك دامية للسقم فيها وللآلام إسراع
فان نطقت فكلى فيك ألسنة وإن سمعت فكلى فيك أسماع
وهذا غزل لا أسر فيه ولا إبداع .

* * *

واللغويون ورواة القريض كالأصمعى ، وأبى عبيدة ، والخليل ، وخلف الأحمر ،
لهم شعر أيضا ظهر عليه مسحة العلم إلا من شذ منهم كخلف ، فقد تأخر فى هذا
المضمار إخوانه ، وتقدم هو ، ووصفه ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ،
بأنه كان شاعرا كثير الشعر جيدة ، ولم يكن فى نظرائه من أهل العلم أكثر شعرا
منه ، وتقل السيوطى عن كتاب طبقات النحويين لأبى بكر الزيدى قال : قال أبو
على التالى : كان خلف الأحمر يقول القصائد الغر ، ويدخلها فى دواوين الشعراء .
أقول : قدس شعرا على الشنقرى ، وعبد القيس ، والنابغة ، وغيرهم ، وبلغ به
التصرف فى فنون الشعر إلى حد أنه كان كل شعر يقوله ، يشبه شعر من يتحله إياه ،
حتى لم يستطع النقاد أن يميزوا الموضوع من غيره ، إلا أنه نسك فى آخر أيامه ،
وخرج إلى أهل الكوفة ، وأطلعهم على مائحه الشعراء ، ودسه عليهم . فأين من
كانت منزلته فى الدرجة التى ترجم له فيها المتقدمون فى كتب طبقات الشعراء ،
من الخليل والأصمعى وأبى عبيدة ، حيث لم نجدهما إلا رواة ونقذة وذوى بصر
بالجيد من الشعر . وشأنهم فى ذلك شأن الصيرفى الماهر فى تمييز الزائف من الجيد
ولكنه لا يملك من الجيد شيئا . فن ذلك مثلا مارواه ابن قتيبة فى كتابه الشعر
والشعراء للخليل .

إن الخليط تصدع فطر بذائك أوقع
لولا جوار حسان حور المدامع أربع
أم البنين واسما ثم الرباب وبوزع
لقلت للقلب ارحل إذا بدالك أودع

ووصفه بعد أن ذكره ، بأنه بين التكلف ، ردى الضعة ، والخليل بن أحمد هذا هو أستاذ سيويه ، الأصمعي والنضر بن شميل ، وقال عنه السيرافي : إنه أول من استخرج العروض ، وحصر أشعار العرب ، وكانت له معرفة بالإيقاع ، ومع ذلك ينشد مثل هذا الشعر .

ومن شعر الأصمعي ، وهو إمام في اللغة والغريب والملح والأخبار والنوادر ، وكان كما قال عمر بن شبة : يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة — قوله في جعفر البرمكي .
إذا قيل من للندی والعلا من الناس قيل : الفتى جعفر
وما إن مدحت فتى قبله ولكن بنى جعفر جوهر

بربكم : أهذا شعر عالم يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة ، رحم الله شيخه عمرو بن أبي العلاء ، فإنه لم يقصد إلى مالا يقدر عليه ، ولم يغالب طبعه ، ولم يحاول أن يرغم نفسه أن تأتي بما لم تنهأ له ، ألا ترى أن هذا الذي يخبرنا أبو عبيدة أنه كان أعلم الناس بالقراءات والعريية وأيام العرب والشعر ، وأن دفاتره كانت ملاء بيته إلى السقف ، لم يرووا له شعرا إن صحت الرواية غير بيت واحد هو قوله :

وأنتكرتني وما كان الذي تنكرت من الحوادث إلا الشيب والصلع
وأبو عبيدة الذي كان أعلم أهل زمانه بالأنساب وأيام العرب بشهادة الجاحظ — يقول عنه السيوطي في بنية الوعاة : وكان يقول شعرا ضعيفا ، وأصلح ما روى له قوله :

يكلمني ويخلج حاجييه لأحسب عنده علما دفينا
وما يدرى قبلا من دير إذا قسم الذي يدرى الظنونا

وذلك هو أبو بكر بن دريد ، الذي رووا عنه أنه أشعر علماء الأدب الى زمانه وأنه كان أنفذهم بصرا في فنونه ، وأودرهم على الابانة بين غثه وسمينه . ومن رجع الى كتب المتقدمين من نقدة الأدب ، ورواة الشعر ، يجدهم بلا استثناء يرجعون الى ابن دريد ، ويضعون رأيه في اللغة والأدب أمام رأي غيره ، ومع ذلك : فان له شعرا لا يصح بحال أن تضعه في إحدى كفتي ميزان ، وعديله شعر كثير من هم دونه علما باللغة والأدب ، فهو لا يجرى مع شاعر ما في عنان واحد ، أقرأ قول الامام ضياء الدين الموصلي في كتابه المثل السائر صفحة ١٦٧ :

« هذا ابن دريد ، قد قيل : إنه أشعر علماء الأدب ، وإذا نظرت الى شعره ، وجدته بالنسبة الى شعر الشعراء المجيدين منحطا ، مع أن أوائك الشعراء ، لم يعرفوا من علم الأدب عشر معشار ما علمه » . ٥١ .

من ذلك تعلم أنه ليس كل من عقد وزنا بقافية ، قد قال شعرا ، لأن الشعر شيء آخر تطلبه وراء الوزن ، ووراء القافية ، وإلا كان ما ينظمونه من متون العلم والفنون كألفية ابن مالك في النحو شعرا .

ما يتساوى من الكلام على الآذان مصنوعة وساذجة وإنما الشعر كالدرهم ، لا يجوز عند النقاد زايجه . قال الفضل بن الربيع : إن من بيوت الشعر أياتا ملئ المتون ، قليلة العيون ، إن سمعتها لم تفكك إليها ، وإن فقدتها لم تبالها . ولقد صدق الفضل في ذلك ، فأى شعر موزون ترى في قول أبي الأهم

معاوية النقي اله
مرى أمير المؤمنين
أعطى ابن جعفر مالا فقضى عنه الديونا
هذا ليس شعرا لا بالوزن ولا بالمعنى وإنما أجاز زياد قائله ، لأنه هزل فأجاد الهزل .

وأعلم أن الناس يختلفون في تقدير الشعر اختلافا كثيرا أو قليلا بالنسبة الى ما طبعهم الله عليه من ذوق صحيح أو مريض ، وحس صاف أو كدر ، وميل نفسى .

وإنما مثل الشعر أمام تقدير الناس مثل ألوان الطعام ، هذا يشتهي ذلك اللون ، ويحبه ، ويتمنى أن لوملاً منه بطنه كل يوم ، وذلك يبعثه ، ويكره أن ينظر إليه ، فضلاً عن أن يأكله ، ولهذا نراهم يختلفون ، فيقول أحدهم : فلان الشاعر أشعر الناس ، ويرى آخر أن غيره أشعر منه ، بل تجد الرجل الواحد يسمع شعراً ، فيقع من نفسه موقعا حسنا ، فيقول : ان صاحبه أشعر الناس ، ويسمع شعر شاعر آخر فيطمئن إليه . فيرى أن صاحب هذا أشعر الناس . وهكذا .

رووا ان القبي انشد مروان بن أبي حفصة لزهير . فقال : هذا أشعر الناس . ثم انشده للأعشى . فقال : بل هذا اشعر الناس . ثم انشده لامرئ القيس . فكأنما سمع به غناء على شراب . فقال : امرؤ القيس والله أشعر الناس . فروان بن ابى حفصة . وهو شاعر لا يثبت في ذلك على رأى . فما ظنك بغيره ؟
 بما تقدم تعلم أن الذوق . وضبط النفس . وحالة السمع ومقدرة المنشد - دخلا كبيرا في الحكم على الشعر . فإن هذا قد يستهجنه فلان ويستبرده . في حين أن غيره يستجمله ويستحسنه . واذهب الى أبعد من هذا . فقد تستحسن اليوم ما تستهجنه غدا . وقد تستهجن اليوم ما تستحسنه غدا . فتأمل .

محمد أحمد برانق

المدرس بالكلية الحربية